قاسيون والخرافات

حمل الينا البريد الكراسات الأخيرة التي صدرت من المعلمة الاسلامية في هولاندة فسقطنا فيها على مقالة للاب هنري لامنس اليسوعي في « قاسيون » جبل دمشق ، غفل فيها عما يجب ذكره في مثل هذه المواقف من وصف طبيعة الجبل وطوله وعرضه وجيولوجيته وتربته وتاريخه القديم وعمرانه الحديث ، واكتفى بان عرفه تعريفاً بسيطاً ونقل ما رواه ابن جبير من ان مولد ابراهيم في قرية برزة و يعظم عندهم وان قاسيون موطن الأنبياء وان آدم أقام فيه وان قابيل قتل أخاه هابيل عليه فدفن في هذا الجبل الغاص بالمدافن ، وان ارباب المعلمات والمؤرخين الدمشقيين يقولون ان في هذا الجبل عدة الوف من الأنبياء والشهداء دفنوا بين باب الفراديس وسفح الجبل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هـذا ما أراد المؤرخ لامنس ان يعلّمه لقراء المجلة الاسلامية وهو السفر المنقح الذي يكتب على بلاد الاسلام في الغرب وفاخرنا في الجزء الماضي (ص ٢٤١ — ٢٤٦) بتجويد مواده . وقد تدبرنا مايقصد اليه الاب الاديب من إلصاق هذه الهنات بتاريخنا فلم نر في كلامه ما يحمل على حسن النية مهما أحسنا الظن به ، وكأن مقالته أشبه بالهزل لان نقله هذه الخرافات على انها حقائق مسلّم بها، وهي سخافات وترهات كان بعض العامة من أهل القرون الوسطى يتسلون بها ، لان ابن جبير وابن عساكر و ياقوت ذكروا هذه السخافات كما تورد اليوم معتقدات الشعب وأساطيره ونسميهـا فولكلور . أوردوا ذلك مع الاحتراز على عادة مؤلفينا بل عادة جماع المؤلفين في معظم العصور . ومن آدابهم انهم ينقلون ما لا يعتقدون صحته باسلوب يفهم منه رائد التحقيق ان في المسألة نظراً . فقد شفع ياقوت كلامه على هذه الاساطير بقوله و« يقال» و « يزعمون » وابن جبير بقوله « ذكر » بالبنـاء للمجهول ، وكذلك يفعل جميع أهل التحقيق من المؤرخين والجغرافيين والرحالين في نقل ما كان من هذا القبيل . ولكن الأب غفل او تغافل عن هذه الاحترازات .

وقد أحببنا ان نعرف ما قاله اللغويون في «زعم» فكشفنا عنها في كتاب الاب لامنس نفسه الذي سماه « فرائد اللغة في الفروق » وطبعه في المطبعـة اليسوعية في بيروت سنة ١٨٨٩ فرأينا في صفحة ٦٨ ما هذا نصه الحرفي : « الحساب والزعم . ان (الحساب) لايكون الا باطلاً و (الزعم) قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً . جاء في القرآن : على الله أرزاق العباد كما زعم . فان هـذا الزعم بمعنى حق اه » وما ندري اين الآية الشريفة التي استشهد بهـا على لفظ زعم ، ولعله هو لا يدري ، اللهم الا الطريق الى تحريف بعض ما لا يوافقـه من نصوص المؤلفين . اما آيته فهي شطر من بيتين لعمرو بن شأس أوردهما صاحب اللسان وهما :

وعاذلة تخشى الردى ان يُصيبني ... تروح وتغـدو بالملامة والقسم
تقول هلكنا ان هلكت وانما ... (على الله أرزاق العباد كما زعم)

هذه أمانة العلم والنقل عند الأب لامنس ، واذا بلغ به التهجم على تحريف آيات الكتاب العزيز الذي يعرفه صبيان المسلمين على صحته ، اي ثقة تبقى لانسان فيما كتبه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

او يكتبه في الاسلام والعرب . الأب لامنس لم يؤتمن على كتاب المسلمين المقروء المشهور المحرر المفسر فكيف يؤمن على تاريخهم ومدنيتهم .

ولقد رد المحققون في كل عصر امثال هذه الخرافات التي وضعها بعض القصاصين والوضاعين ، وأوردها الأب لامنس كأنها حقيقة ثابتة عنده وعند أصحاب هذا الجبل اليوم . هو حرٌّ يوم يدون هذا في باب معتقداته مثل رواياته الغريبة وما فيها من العجائب ، ولكن الاسلام بريء من هذه النزعات . والعرب اذا قيسوا بغيرهم أقل الشعوب ميلاً الى الخرافات . وليس في الارض فيما نحسب أمة عُنيت بتصحيح أسانيد أخبارها كالمسلمين . فلو صحت خرافات جبل قاسيون عند هؤلاء الناقلين أما كانوا يوردون لها أدلة الصدق والتصديق و يتركون الفاظ «زعموا» و«قيل» و«ذكروا» من الفاظ التوهين والتضعيف . قرأنا اكثر من مقالة للأب لامنس في هذه المجلة الاسلامية فرأيناها خلت في الجملة من القوارص . وان كانت كل كتابة تظهر عليها حلة من قلب كاتبها ، فقلنا لا بأس ان له قلمين قلم يدخره لما يطبع في المطبعة الكاثوليكية لحضرات الآباء اليسوعيين في بيروت خدمة لجماعته وجمعيته ودعوته ، وقلم يكتب به في اوربا يجرده في الجملة من بضاعة الدين والنيل من الاسلام والمسلمين ، وتصوير مدنية العرب في بشاعة وشناعة ، شأن الشعوبية الذين لا يكادون يثبتون مزية للعرب ولا يعترفون لهم بمدنية و يسلبونهم بلاءهم في خدمة الانسان والعمران . وللسيد لامنس في هذا الباب طرق غريبة شبيه بعضها بمن يقرأ الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون الآية » فيقف عند قوله لا تقربوا الصلاة و يشرع في ايراد اشياء واستنتاج أشياء يوردها في معرض الغمز واللمز . وايراده اليوم تخريفات قاسيون بدون الاشارة الى القيود التي قيد بها ناقلوها رواياتهم من هذا البحر والقافية .

لو كان الأب لامنس يريد ان يخدم الحقيقة التاريخية في مقالته عن قاسيون لذكر طبيعة تربته ونوع صخوره ومن اين جاء اسمه وما فيه من المشاهد التاريخية الحقيقية فقال مثلاً ان قاسيون كلمة عبرانية مشتقة من قصة ومعناها الطرف والحرف والمخروط ولأورد عبارة ابن عساكر في القناة التي جرها المأمون العباسي من عين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مَنين الى معسكره بدير مران في سفح هذا الجبل المطل على دمشق قال : « ان ملوك بني العباس لم يزالوا يختفون الى دمشق طلباً للصحة وحسن المنظر ، منهم المأمون فانه أقام بها ، واجرى اليها قناة من نهر منين في سفح جبلها الى معسكره بدير مران ، وبنى القبة التي في اعلى الجبل وصيرها مرقباً ، يوقد في اعلاها النار لكي ينظر الى مافي عسكره ، فاذا جنّ عليه الليل ، كان ضوءها الى ثنية العقاب والى جبل الثلج اه » . وكان الواجب على الأب لامنس ان يقول شيئاً في هذه المناور التي جعلت في القرون الوسطى للإعلام بحركات الأعداء ومنها القبتان الباقيتان على قمة قاسيون وهما قبة السيار وقبة النصر او النسر « وكانوا يرصدون في كل منوّر الديادب والنظارة لرؤية ما وراءهم وايراء ما أمامهم » وقالوا ترفع النار حول دمشق في الجبل المطل على برزة فيرى بالمانع ، و يرفع في العطنة فيرى في ثنية العقاب ، و يرفع فيها فيرى بأذنة العروس ، وان قبة النصر أنشأها الملك الناصر ولها ثلاثة أبواب وشبا كان على ما رواه صاحب المواكب الاسلامية . وان جر مياه منين الى سفح قاسيون الغربي على ما بينهما من الجبال والوهاد يدل على حذق في الهندسة وبعد نظر في العمران ، وان هذه المناور التي كانت بمثابة « الهليوستا اوالبروجكتور » في الليل وبطاقات الحمام التي كانت بمثابة البرقيات في النهار تدل على مدنية تلك العصور وانها كانت وافية بالغرض ، ويكفي ان اوربا اذ ذاك لم تعرف مثلها .

وكان على الاب لامنس وهو الذي صرف في درس تاريخ هذه الديار حياته ان يتعرض في مقالته هذه لما قام به المأمون لماعزم على رصد الكواكب وتقدم الى يحيى ابن ابي منصور المنجم والى جماعته بالرصد واصلاح آلاته ففعلوا بالشماسية ببغداد وجبل قاسيون بدمشق في سنة ١٥—١٦—١٧ بعد المئتين ، وان الوغ بك التتري بنى مرصداً فلكياً على هذا الجبل ايضاً على مايرجح ارباب المعرفة ، وان ينقل عن ابن بطريق ان دير مران كان المسلمون ينزلونه و يسكنون فيه على ما كانوا يفعلون في كنائس الغوطة . ويذكر لنا ما كان في سفح هذا الجبل البديع من الديارات في الاسلام والجاهلية ، خصوصاً وهو ديري بنعمة الله ولا يصعب عليه الإتيان بذلك من المظان التي يعتمد عليها اكثر من اعتماده على كتب العرب . وان يتعرض لما قام في سفح قاسيون ووسطه منذ القرن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخامس للهجرة من المباني العظيمة كالمدارس والمستشفيات والخوانق والرُبُط التي تدهشنا الى اليوم انقاضها ، وان يشير ولو إشارة طفيفة الى واجهة بناء المستشفى القيمري التي هي من ابدع الصناعات الاسلامية والى منبر جامع الحنابلة الذي عز نظيره في الاسلام ، وان يقول لنا ان الجبل من ناحيته الغربية كان يطل على مزارع الزعفران فيبين لنا متى زالت زراعة هذا الصنف من الشام ، بعد ان كان القوم يغالون باستعماله في كثير من أرفاقهم ، ويعرفنا اذا كان هذا الجبل مغروساً بالاشجار ومتى عري منها الى غير ذلك مما يفيد اكثر من قصة هابيل وقابيل وموطن آدم والوقت من الانبياء والشهداء الى غير ذلك من التخريف الذي لا يثبت على محك النقد، وهو من تغفل المغفلين لا محالة كما يعلم بادنى نظر . ومانخال الاب لامنس الا موافقنا في باطنه على ان مثل هذه الابحاث أعلق بالمعلمة الاسلامية من تلك الموضوعات السخيفة المرجوحة .

محمد كرد علي